المخطوطات

مخطوطات زاوية "سيدي خليفة" في الجزائر

خليل إبراهيم العطيّة
معهد الآداب واللغة العربية - باتنة - الجزائر

على بُعد نحو من خمس وأربعين كيلو متراً في الشمال الغربي من مدينة قسنطينة — مركز إحدى ولايات الشرق الجزائري — تقع قرية صغيرة وسط جبال عالية مشرفة على مروج خضر تدعى «سيدي خليفة» يعيش معظم سكانها البالغ عددهم نحواً من خمسة آلاف نسمة على الزراعة والتجارة.

وعلى ربوة عالية منها تقع زاوية تشتمل على جامع، ومجموعة مساكن كانت يوماً مكاناً لإيواء من يقصدها من طلبة العلم، ويقيم الآن فيها طائفة من أحفاد صاحب «الزاوية».

وفي الزاوية ضريح قبر صاحبها، وحجرتان لتعليم الصبيان القرآن الكريم، وحجرة المكتبة فضلاً عن المُصلّى.

وتقرأ على مئذنة الجامع «مسجد الشيخ الحسين ١٨٤٧م» فمن يكون هذا الرجل؟ وماذا في «المكتبة» الملمع إليها من مخطوطات؟

ومن أرشيف «الزاوية» نستل وثيقة رسمية مؤرخة في شباط (فيفري) ١٣٣٠هـ /١٩١٢م صادرة من عمالة قسنطينة(١) وعليها ختم قاضيها الشيخ المكي بن باديس — رحمه الله منها :

«الحمدلله، يعرف شهود زاوية الشيخ سيدي الحسين الكائنة بسيدي خليفة حوز التين من عمالة قسنطينة(٢)، وبها جامع كبير من أحسن الجوامع بداخله ضريح الشيخ الولي الشهير سيدي الحسين المذكور.

يحتوي هذا الجامع على نحو الأربعين متعلماً دون الصبيان، وبه ثلاثة مشايخ: اثنان لتعليم القرآن، والثالث لتعليم العلم، وأمامه قبلة دار كبيرة لسكن الأيتام والفقراء والعاجزين وأبناء السبيل المارين.

وهذه الدار قديمة من زمان الدولة الفرنسية، وليس لها إخوان كسائر الطرق، بل طريقتها إطعام الطعام للصادر والوارد مع الاستقامة، وفعل الجميل وإسداء الخير لكل من يرد عليها من المسافرين والعاجزين واليتامى والأرامل على اختلاف أديانهم، وتباين أجناسهم من غير تفرقة بين الجميع، وهذا مشهور في الأقطار الجزائرية من وجود الزاوية حتى الآن...»».

وتطوي هذه الوثيقة الرسمية، وتعود إلى إمام جامع الزاوية الشيخ يونس بن عبداللطيف بن إبراهيم بن أحمد ابن الشيخ الحسين المولود سنة ١٩٢٢ وتسأله المزيد عن الزاوية ومؤسسها الشيخ الحسين فيمد إليك وثيقة رسمية أخرى فيها نسب الأسرة عن طريق نسب جدّها «الشيخ الحسين» ونفهم منها الآتي ذكره :

١ — أنه الشيخ الحسين بن محمد بن صالح القشي، وبنو قشة من الأدارسة.

٢ — أصله من «المغرب»، وهاجر إلى الجزائر فاستقرّ بادىء ذي بدء في بني زياد، ثم انتقل إلى سيدي خليفة في العهد التركي (العثماني).

٣ — توفي في قرية سيدي خليفة سنة ١٢٦٣هـ الموافق سنة ١٨٤٦م بعد أن عُمّر نحواً من ثلاث وستين سنة.

٤ — أما الجامع المقام بشكله الحالي فقد أسس سنة ١٢٢٣هـ وتولى التدريس فيه أحفاد الشيخ الحسين من بعده.

ولعل من المفيد أن نذكر أن أحفاد «الشيخ الحسين» يبلغون الآن بحسب التقدير — أكثر من ألف نسمة.

ويهمنا بعد هذه الإلمامة اليسيرة الإشارة إلى مكتبه الزاوية، والتعريف بأهم نفائسها، بعد أن تسنى لنا زيارتها أكثر من مرّة لقينا من القومة عليها — بخاصة من إمام مسجدها الشيخ يونس — كل ترحيب وكرم قل نظيرهما.

تشمل مكتبة الزاوية الآن نحواً من مئتي مخطوط، بعد أن كانت — فيما أخبرنا الشيخ يونس — مشتملة على نحو من ستة آلاف مخطوط، عبثت بها يد الدهر، وتعرضت للحريق والإتلاف على أيدي رجال المستعمر الفرنسي الغاشم، ولقد اضطر القومة عليها إلى

دفنها في التراب أكثر من مرة خوفاً من عبث المستعمر واستهتاره، وحقده على تراثنا العربي الإسلامي، وفي عدد وافر من كتب «الزاوية» آثار الرطوبة والأرضة وماأشبه، وليس في المكتبة فهرس مخطوط أو مطبوع ييسر المراجعة، والكثير منها غير مجلد، لذلك نكتفي الآن بالإشارة إلى أهم عنوانات كتبها على وفق وقوعها بين أيدينا.

١ ــ شرح الأزهرية في علم العربية لخالد بن عبدالله الأزهري (نسختان).

٢ ــ قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ).

٣ ــ شذور الذهب لابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ).

٤ ــ الفصيح لثعلب، نسخة مؤرخة في ٥٨٣هـ قرئت على عبدالله بن بري المتوفى (٤٩٩هـ)، عليها آثار أرضة.

٥ ــ المطالع السعيدة في شرح الفريدة لجلال الدين السيوطي (٩١١هـ).

٦ ــ النهجة المرضية في شرح الألفية لجلال الدين السيوطي (٩١١هـ).

٧ ــ ترجمان الأشواق لمحيي الدين بن عربي، نسخة تامة نفيسة غير مؤرخة.

٨ ــ الأفعال لابن القوطية (٣٦٧هـ) ــ النصف الأول والثامن.

٩ ــ سيرة ابن هشام.

١٠ــ المثلث لقطرب وشرحه لسديد الدين عبدالوهاب البهنسي (ت ٦٨٥هـ).

١١ــ تعبير الرؤيا الصغير للشيخ محمد بن سيرين.

١٢ــ تحفة الإخوان في آداب الطريق لأحمد بن محمد الدرديري.

١٣ــ تمييز الطلاب في صناعة الإعراب لخالد بن عبدالله الأزهري.

١٤ــ التصريح بمضمون التوضيح لخالد بن عبدالله الأزهري.

١٥ــ مغني اللبيب عن أسرار (كذا) الأعاريب ــ لابن هشام الأنصاري.

١٦ــ تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس للشيخ علي المصري.

١٧ــ الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النبوية للشيخ إبراهيم ابن مرعي بن عطية.

١٨ــ زبدة الأوطاب ــ مختصر الشيخ خليل (؟).

١٩ــ كتاب المرادي على ألفية ابن مالك.

٢٠ــ تفسير ابن عطية.

٢١ــ تنوير الحوالك على موطأ مالك للسيوطي.

٢٢ــ زهر الأكمام وقصة يوسف عليه السلام لسراج الدين (؟).

٢٣ ــ المنح الربانية وشرح المنظومة الرحمانية لمصطفى باشطارجي القسنطيني.

٢٤ ــ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ــ لمحمد بن جعفر الكتاني ــ الجزء الأول فقط.

٢٥ ــ تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي ــ خمسة أجزاء.

٢٦ ــ الطبقات الكبرى للسيوطي.

٢٧ ــ الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ــ للشيخ محمد الشامي الدمشقي.

٢٨ ــ شرح صحيح البخاري ــ الجزء الرابع.

٢٩ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور ــ للشيخ محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي.

٣٠ ــ تحفة المقالة في حتمية الرسالة لأحمد بن أحمد الفيومي.

٣١ ــ تفسير القرآن للبيضاوي (الربع الثاني).

٣٢ ــ نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء لمحمد بن محمد السباعي.

٣٣ ــ اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر للشيخ الشعراوي.

٣٤ ــ بهجة الأسرار للشيخ عبدالقادر الجيلي.

٣٥ ــ شرح لامية ابن الوردي.

٣٦ ــ شرح التائية لابن السبكي.

٣٧ ــ وجوب الزكاة وحدودها للمختار بن عبدالله الملياني.

٣٨ ــ أنوار البروق في أنواء الفروق للمبارك بن صالح بن عيسى.

٣٩ ــ منظومة الزفاف، وكتاب زاد المسافر لمحمد بن أبي بكر بن الوليد الطرطوشي الفهري.

٤٠ ــ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي القرطبي.

٤١ ــ توهين القول المتين لمحمد بن محمد بن عبدالرحمن.

٤٢ ــ شرح الجمل لابن عصفور ــ الشرح الكبير.

٤٣ ــ ديوان أبي تمام رواية أبي علي القالي.

وسنقف عند الكتابين الأخيرين: شرح الجمل وديوان أبي تمام بعد حين.

٤٤ ــ عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد لأبي يعقوب يوسف بن عمر السنوسي الحسني.

٤٥ ــ شرح العلوي على السمرقندية للشيخ محمد الخضري.

٤٦ ــ حاشية السجاعي على شرح القطر لابن هشام.

٤٧ ــ جامع المسند الصحيح من أحاديث رسول الله ﷺ لأبي

عبدالله بن محمد.

٤٨ ــ شرح لامية ابن الوردي.

٤٩ ــ شرح منظومة ابن فرج الإشبيلي.

٥٠ ــ إيضاح المبهم من معاني السلم ــ للشيخ أحمد الدمنهوري.

٥١ ــ إلجام العوام عن الخوض في علم الكلام ــ للغزالي.

٥٢ ــ البركة في السعي والحركة وماينجي من الهلكة لمحمد بن عبدالرحمن.

٥٣ ــ طبقات الخواص في أهل الصدق والإخلاص لزين الدين أحمد بن محمد.

٥٤ ــ حاشية الجرجاجي.

٥٥ ــ فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار ــ لعلي بن عبدالرحمن.

٥٦ ــ ديوان جمال الدين يحيى بن يوسف بن المنصور الصرصري ــ أماديح في رسول الله ﷺ.

٥٧ ــ أسرار العربية ــ لابن الأنباري (٥٧٧هـ).

تلك أهم عنوانات كتب «الزاوية»، ويلاحظ مما أوردنا الآتي ذكره:

١ ــ اشتمالها على عدد وافر من كتب علوم الدين.

٢ ــ كثرة الكتب المصنفة في مذهب الإمام مالك (رضي الله عنه).

٣ ــ أن طائفة منها مطبوع متداول.

وإذا كان الوقت، وقلة مابين أيدينا من مظان حال دون وصف ماقدمنا من عنوانات المخطوطات، فإنا نقف عند أثرين نفيسين من آثارها، لعلمنا بأهميتهما، وكبير خطرهما.

أما الكتاب الأول فهو شرح الجمل لابن عصفور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٦٩هـ[٣].

وكان زميلنا الدكتور صاحب أبو جناح أصدر بتحقيقه ١٤٠٠هـ/١٤٠٢ «شرح جمل الزجاجي لابن عصفور» في مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية «إحياء التراث الإسلامي ٤٢» ــ وكتب على غلافه بمجلديه «الشرح الكبير» ترجيحاً بعد أن رأى السيوطي[٤] وغيره من المتأخرين يشيرون إلى ثلاثة شروح لابن عصفور: صغير وأوسط وكبير، وخلص «إلى أن نسخة المكتبة التيمورية، ونسخة مكتبة ليدن، ونسخة الأحمدية تمثل الشرح الصغير، وأن نسخة تركية، ونسخة امبروزيانا تمثلان الشرح الكبير» لذلك رأى أن ينهض بتحقيق الشرح ــ الذي نشره ــ وسمّاه «الكبير».

وقد ثبت عندنا من الموازنة بين المطبوع والمخطوط الذي تضمه زاوية «سيدي خليفة»، أن الشرح المنشور لجمل الزجاجي لابن عصفور ــ الملمع إليه ــ هو الشرح الأوسط، ــ وليس الكبير ــ وأن مخطوط الزاوية هو الشرح الكبير. وقبل أن نسوق البيّنة ــ على هذا الزعم ــ نحب وصف النسخة المخطوطة منه.

يقع المخطوط في ثلاث ومئتي ورقة، قياس ٢٧سم × ٢١سم، معدل ما في الورقة سبعة وعشرون سطراً، ومعدل أسطرها نحو من ثلاثة عشر سطراً (انظر الأنموذج المنشور).

والنسخة بخط مغربي جيد مقروء، تم الفراغ من نسخها في أواخر شهر ذي القعدة من عام اثنين وتسعين وسبعمائة على يد: محمد بن عبدالرحمن العرناني (كذا ولعله العدناني) البرشكي.

والنسخة تامة لم ينقص منها شيء، أولها بعد البسملة:

«صلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم قال الشيخ الفقيه الاستاذ النحوي اللغوي علي بن مؤمن بن عصفور الحضرمي رحمه الله...»

وينتهي بقول ناسخه: «كمل شرح الجمل لابن عصفور ــ رحمه الله ــ بحمد الله، وحسن عونه على يدي العبد الفقير إلى الله تعالى....» ثم ساق اسمه وتاريخ النسخ الذي سبق إيراده.

ولأن هذا الشرح هو الشرح الكبير لجمل الزجاجي (٣٣٧هـ) فإنه مشتمل على زيادات أبواب، وإفاضة لما أورده في شرحيه الآخرين: الأوسط ــ وهو المنشور ــ والصغير الذي لم ينشر بعد.

ولعل باب التصريف خير مثال على زيادات المصنَّف المشتمل على أبواب لانجدها في المطبوع منها: باب الإدغام، وباب من شواذ الإدغام، وباب أبنية الأفعال، وباب ألف الوصل وألف القطع، ومسائل في الأصوات: الحروف المستحسنة وغير المستحسنة، والأصوات المجهورة والمهموسة وما إلى ذلك.

وتتفق عبارة هذا الباب والكثير من أقسامه مع عبارة «الممتع في التصريف» للمصنف نفسه الذي نشره الدكتور فخر الدين قباوة في حلب ١٩٧٠م فضلاً عن أقسامه، مما خيل به إلينا أن هذا الباب كان نواة لكتاب «الممتع» الملمع إليه.

ولعل بابي: نعم وبئس والتأكيد، خير دليل على إفاضة ابن عصفور في تناول المسائل المطروحة فيهما، سواء في الزيادات التي تعزز رأياً، أو الشواهد الشعرية التي تقوّم رأياً، أو إيضاح غامض، أو ذكر لخلاف في معالجة مسألة، مما لانريد الخوض فيه الآن، ولعلنا نعود إليه في قادم الأيام بإذن الله.

أما الكتاب الآخر الذي نريد الوقوف عنده من نفائس الزاوية فهو ديوان أبي تمام رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي المعروف بالقالي المتوفى سنة (٣٥٦هـ)[٥].

تقع مخطوطة الكتاب في ست وثلاثين ومئة ورقة، ٢٢سم × ١٧سم بمعدل عشرين سطراً في الصفحة الواحدة، وبمعدل عشر كلمات في السطر الواحد، وخط النسخة مغربي.

أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ــ رحمه الله تعالى ــ رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي رحمه الله... وقال يمدح محمد بن يوسف الطائي...».

وآخرها: «انتهى شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي رواية علي بن اسماعيل بن القاسم البغدادي ــ رحمة الله عليه ــ وذلك في السادس والعشرين من المحرم الحرام فاتح إحدى وثلاثين ومئة وألف، والحمد لله على ذلك كثيراً»(٦).



صفحة من شرح الجمل لابن عصفور

وليس في الديوان شروح، وفي هوامشه بعض الشروح اليسيرة، والإشارة إلى اختلاف الشعر المروي «انظر الأنموذج المنشور».

وقبل أن نترك القلم لابد من دعوة المسؤولين في وزارة الثقافة الجزائرية إلى العناية بمخطوطات هذه الزاوية بفهرستها وتجليدها وتصويرها لئلا تضيع كما ضاعت أخوات لها من قبل، وترميم مابلي منها خوفاً من يد الحدثان، والأرضة التي تنخر أوراق الكثير من نفائسها وأعلاقها، ولاشك أنّ هذه المخطوطات تراث وطني لايمكن جحده، وهو ملك الأجيال جميعاً.

رحم الله الشيخ الحسين القشي مؤسس هذه الزاوية، وأسكنه فسيح جنانه، وحفظ القومة من أحفاده لصيانة هذا الكنز الثمين من عاديات الزمن، والله من وراء القصد.



صفحة من ديوان أبي تمام رواية أبي علي القالي

الهوامش

(١) تقابل العمالة ــ اليوم ــ الولاية.

(٢) وتعود قرية سيدي خليفة الآن إدارياً إلى دائرة القرارم التابعة إلى ولاية ميلة.

(٣) انظر ترجمته في: عنوان الدراية للغبريني ١٨٨ وصلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن الزبير ١٤٢ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢ /١٨٤ وبغية الوعاة ٣٥٧ وشذرات الذهب لابن العماد ٥ /٣٣٠ ومقدمة محقق الكتاب.

(٤) بغية الوعاة ٣٥٧ ومقدمة الدكتور أبو جناح في شرح الجمل ١ /٧١ وانظر كشف الظنون ١ /٦٠٣.

(٥) انظر عنه بغية الوعاة ١٩٨.

(٦) لعل من المفيد الإشارة إلى أن دير الاسكوريال يحتفظ بنسخة من رواية أبي علي القالي لديوان أبي تمام.